الفصل السابع

الدكاترة زكى مبارك ومدائحه النبوية

كلما أشرقت علينا أنوار الربيعين من كل عام، يجد المرء منا دافعا لا يقاوم نحو مطالعة كتب السيرة والحديث والمدائح النبوية، وما يتصل بها من آداب إسلامية رفيعة. ومن الكتب التى نطالعها الآن كتاب فريد فى بابه، طريف فى تبويبه وترتيبه، وهو أصلا جزء من رسالة قدمها الدكتور زكى مبارك إلى الجامعة المصرية عن: «أثر التصوف فى الأدب والأخلاق».

وعلى الرغم مما اشتهر به الدكتور زكى مبارك من حدة وشدة، حتى على نفسه التى شق عليها كثيرا، فلم يقنع بدكتوراه واحدة ولكنه جمع بين ثلاث درجات لها، كما تميز الرجل أيضا بشجاعة فى الرأى والفكر، لا سيما فى معاركه الأدبية لدرجة أنه اشتُهِر فى الأوساط الأدبية والفكرية بالملاكم الأدبى، إلا إنه – مع كل ذلك – قد كان يحمل بين جنبيه قلبا عطوفا حانيا، وروحا صوفية مُحلقة.

ولا ننسى أنه كان أيضا شاعرا مُجيدا قبل أن يكون أديبا ناثرا، وكاتبا مفكرا. وناقدا له رؤيته وآراؤه السديدة. ونظرة واحدة إلى بحوثه وعناوين كتبه ودراساته للدكتوراه، تجعل المرء يوقن بعمق إيمانه، ومدى حبه

للنبـى – صلـى الله عليه وسـلم – وآل بيته، وإحساسـه الدينى المرهف والعميق، ولاشك أن هذا يرجع إلى البيئة الريفية النَّقيَّة التى نشأ وترعرع فيها. فمن دراساته المستفيضة التى نال بها إحدى درجاته للدكتوراه، واحـدة كان عنوانهـا: «الأخلاق عند الغزالى»، وله دراسـة أخرى تحت عنوان: «عبقرية الشريف الرضى»، صاحب القصائد الكثيرة فى مدح أهل البيت، إضافة إلى أطروحته الثانية للدكتوراه حول: «التصوف الإسلامى»، كما أن له فصولا وبحوثا كثيرة مبثوثة فى كتبه ذات الموضوعات المتنوعة، تتعلق بالدين والأخلاق والقيم والشخصيات الإسلامية.

وهـذا الكتـاب هو واحد مـن كتبه التـى لم تنل حظا من الشـهرة والذيوع على ندرة ما ألف فى موضوعها، وهو بعنوان: «المدائح النبوية فـى الأدب العربى». وسـنحاول فـى هذه العُجَالـة أن نتعرض لبعض الموضوعـات والآراء التـى وردت فيه، وقبل ذلك نذكـر طرفا من حياة الكاتب الكبير.

نبذة عن الكاتب

ولـد الدكتـور محمد زكى عبد السـلام مبارك عـام ١٨٩٢ فى قرية «سـنتريس» التـى طالما ذكرهـا فى كتبـه وقصائده ومؤلفاتـه، وقرن اسمها باسـم عاصمة فرنسـا باريس، وهى إحدى قرى مركز أشمون، التابع لمحافظـة المنوفية فـى رأس دلتا مصر الخصيبـة، التى يحدها فرعى نيل مصر الخالد: فرع دمياط من الشرق وفرع رشيد إلى الغرب.

وقد عمل الرجل بالتدريس فى الجامعة المصرية وفى دار المعلمين العليا فى بغداد. كما عمل بعد إقصائه من الجامعة فى التفتيش فى المدارس المصرية. وقد ترك الرجل ثروة فكرية هائلة، تتميز بجمال الأسلوب، وقوة العاطفة، وشجاعة الرأى، وعمق الفكر وأصالته. فبالإضافة إلى ما ذكرناه آنفا من كتبه ودراساته، فله أيضا: ديوان زكى مبارك، ألحان الخلود، مدامع العشاق، العشاق الثلاثة، الحديث ذو شجون، حب ابن أبى ربيعة. الموازنة بين الشعراء، وَحْى بغداد، الدين واللغة والتقاليد، ملامح دينية، حافظ إبراهيم، ليلى المريضة فى العراق، وغيرها. وقد توفى الرجل فى حادث مؤسف عام ١٩٥٢، وهو فى قمة نشاطه الفكرى ومجده الأدبى.

كلمة عامة حول الكتاب

كتاب «المدائح النبوية فى الأدب العربى»، كتاب فريد فى بابه كما ذكرنا آنفا. ولذا فإن كل من يتعرض لمثل هذه الدراسات، لابد وأن يتخذ من هذا الكتاب حجة ومرجعا، ومصدرا يرجع إليه المرة بعد الأخرى. ويعرف الرجل ذلك ويسجله فى صدر كتابه فيقول: وإنى لأعترف بأنى مأخوذ بنشوة النصر وأنا أقدم هذا الكتاب إلى القراء، فما كنت أحسب أن الزمان سينصفنى هذا الإنصاف فأكون أول من يرسم خصائص المدائح النبوية فى الأدب العربى، وهو موضوع كان يجب أن تعين رسومه وحدوده منذ أزمان، وقد تلقيت جزائى سلفا على تحبير هذه الفصول،

فلن أنسى ما حييت تلك التحيات الطيبات التى تلقيتها من الدكتور منصور فهمى، والأستاذ مصطفى عبد الرازق، والدكتور عبد الوهاب عزام. ومن قبل هذا أنست بموضوع البحث. فكان ذلك الأنس أفضل جزاء، وأى أنس أعظم من شغل النفس بتلك الأقباس الروحانية التى بثها نبى الإسلام فى أرجاء الوجود[1]؟

والنسخة التى بين أيدينا هى نسخة مصورة عن الأصل الذى طبعه المؤلف لأول مرة. والذى لا نعرف - على وجه التحديد - تاريخ طباعته، وقد صدرت هذه الطبعة عن هيئة قصور الثقافة المصرية بتاريخ ٢٠٠٣، والغريب الذى يدعو إلى الدهشة أن يذكر فى هذه الطبعة جملة: الطبعة الأولى وكأن الكتاب لم يطبع من قبل، مع أن هذه الطبعة إن هى إلا مجرد تصوير عن نسخة الطبعة الأصلية الأولى السابقة فى الظهور قبل هذه الطبعة بعشرات السنين. ولكن هكذا هان علينا تاريخ الأدب، أو هان على كثيرين منا حتى بتنا نزيف الحقائق ونقلب الموازين!

من محتويات الكتاب

يتألف الكتاب بعد فاتحته من اثنى عشر فصلا وخاتمة. تحدث المؤلف فى الفصل الأول عن «نشأة المدائح النبوية». وفرَّق بين المدائح والرثاء، ثم عرَّج على دالية الأعشى ولامية كعب بن زهير

(١) د. زكى مبارك (٢٠٠٣): المدائح النبوية فى الأدب العربى. العدد رقم ٤٨ من سلسلة «ذاكرة الكتابة». الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة. ص ٨.

ثم مدائح شاعر الرسول حسان بن ثابت ومدائح على بن أبى طالب – كرم الله وجهه– ثم ميمية الفرزدق ثم علّق على مدح أهل البيت وأنهى هذا الفصل بالحديث عن النسيب فى صدر المدائح النبوية، والتى يعلل المؤلف وجودها فى صدر مثل هذا اللون من الشعر جنبا إلى جنب مع الخمريات: أن هذا الأسلوب كان معروفا فى الجاهلية، وقد وقع مثله فى همزية حسان وفى لامية كعب التى مدح بها الرسول – صلى الله عليه وسلم– فلم يغير هذان التاعران شيئا من المذاهب الشعرية حين خاطبا النبى – صلى الله عليه وسلم – ولم يتورعا عن ذكر الخمر والنساء، والتحسر على ملاعب الشباب. وليس هذا بغريب فإن المذاهب الأدبية لا تتغير فى عام أو عامين، ومن الإسراف أن ننتظر ذلك.

أما الفصل الثانى فقد بسط المؤلف فيه البحث فى عدة نقاط منها: نشأة العطف على أهل البيت ثم عرّج على مقتل الإمام الحسين مرورا بالنواح فى يوم عاشوراء ثم الصلاة على الحسن والحسين فى بعض الخطب المنبرية ثم مصرع ابن السكيت ودسائس الأمويين ضد الحسن بن على ثم المبالغة فى بكاء الحسين ثم تحدث عن أشياع على فى حضرة معاوية وغيره من الخلفاء وأخيرا أوضح أن: مدح شعراء الفاطميين لأهل البيت ليس من التصوف.

أما الفصل الثالث فقد كرّسه المؤلف «للكميت بن زيد الأسدى»، مُركِّزا على إخوانياته، وحبه لأهل البيت، واعتذاره عن مدح بنى أمية، ويُذكر أن من أول شعره ما قد جرى مجرى الأمثال:

يـا لـكِ مـن قـنـبـرة بـمـعـمـر   خـلا لـكِ الجوِ فبيضى واصفرى
ونـقـرى مـا شـئـتِ أن تـنـقّـرى

ويذكر المؤلف أن الكميت لا يمدح أهل البيت لذواتهم، وإنما يعلل ذلك بقرابتهم من الرسول، كقوله فى البائية الكبرى:

إلى الـنـفـر الـبـيـض الذين بحبهم   إلى الله فـيـمـا نـالـنـى أتـقـرَّبُ
بـنـى هـاشـم رهـط النبى فـإنـنـى   بـهـم ولهم أرضى مـرارا وأغـضبُ

ثم أدار المؤلفُ الفصلَ الرابع حول «هاشميات الكميت»، ومناقبهم وكرم أخلاقهم، ثم أنهى هذا الفصل بالكلام عن بائيته ولاميته الشهيرتين، ثم أنهى بالتعليق على: مظهر التصوف فى البائية.

وفى الفصل الخامس ركز المؤلف على «تائيات دعبل» فى أهل البيت، وأشهرها وأبقاها على الزمان، وأجدرها بالخلود تائيته التى يقول فى مطلعها المُفجِع:

مـدارس آيـات خـلـت من تلاوة   ومـنـزل وحى مـقـفـر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى   وبالـركـن والتعريف والجـمرات
ديـار عـلـى والـحسـيـن وجعفر   وحـمـزة والـسجـاد ذى الثفنات

أما الفصل السادس فقد خصصه المؤلف حول: «قصائد الشريف الرضى فى صريع كربلاء» - رضى الله عنه، وكرَّم الله وجه أبيه، ومنها قوله:

يا ابن بنت الرسول ضيعت العهـ   ـد رجال والحافظون للعهد قليل
ما أطاعوا النبى فيـك وقـد مـا   لـت بـأرمـاحـهـم إلـيك الـذحول

ثم جاء الفصل السابع حول «قصائد مهيار الديلمى فى أهل البيت». ويذكر المؤلف أن لمهيار فى أهل البيت عشر قصائد طوال، ويوحى جو تلك القصائد بأن معاصريه كانوا يستكثرون عليه أن يمعن فى مدح آل الرسول، كأن العصبية لاهل البيت كانت تعتمد على الجنسية العربية. ولذا نراه يقول:

أنا العهد والأكم عقده ... إذا القول بالقلب لم يعقدِ
وفيه ودادى ودينى معا ... وإن كان فى فارس مولدى
خصمت ضلالى بكم فاهتديت ... ولولاكمُ لم أكن أهتدى

أما الفصل الثامن فقد دار حول: «بردة البوصيرى» واسمه محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج، كان أحد أبويه من «أبو صير»، والآخر من «دلاص» من قرى بنى سويف. فركبت له منهما نسبة، وقيل أيضا «الدلاصيرى». لكنه اشتهر بالبوصيرى، وقد توفى بالإسكندرية وله بها قبر مشهور يتصل به مسجد كبير.

وقد ذكر المؤلف حديث البوصيرى حول سبب وضعه لهذه القصيدة الشهيرة، فقال على لسانه: «كنت قد نظمت قصائد فى مدح رسول الله- صلى الله عليه وسلم - منها ما كن اقترحه علىَّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير. ثم اتفق بعد ذلك أن صاحبنى فالج أبطل نصفى. ففكرت فى عمل قصيدتى هذه فعملتها. واستشفعت بها إلى الله تعالى فى أن يعافينى، وكررت إنشادها، ودعوت، وتوسلت، ونمت فرأيت

النبى- صلى الله عليه وسلم - فمسح وجهى بيده المباركة. وألقى على بردة، فانتبهت ووجدتُ فىَّ نهضة، فقمت وخرجت من بيتى، ولم أكن أعلمت بذلك أحدا فلقينى بعض الفقراء فقال لى: أريد أن تعطينى القصيدة التى مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: أيها؟ فقال: التى أنشأتها فى مرضك وذكر أولها، وقال: والله لقد سمعتها البارحة تنشد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمايل وأعجبته، وألقى على من أنشدها بردة. فأعطيته إياها، وذكر الفقير ذلك، وشاع المنام»[1].

وبعد أن يستبعد المؤلف حصول ذلك ويرجعه إلى سذاجة وطيبة البوصيرى يعود فيقول فى حاشية الصفحة: كذلك قلنا فى (كتابنا) «الموازنة بين الشعراء»، ونرى الآن أن البوصيرى صادق فى رؤياه. لأن قوة الإيمان تؤثر أبلغ الأثر فى التأثير على الجسم، ولاسيما إذا تذكرنا أنه لم يزد على أن قال: أنه وجد فى جسمه نهضة. وذلك أقل ما يُنْتظر لرجل مؤمن يرى الرسول صلى الله عليه وسلم فى المنام ويسمع منه التشجيع.

وتقع هذه القصيدة العصماء فى اثنين وثمانين ومائة بيت (١٨٢)، ويقول البوصير فى مطلعها:

أمن تذكر جيران بذى سلم ... مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة ... وأومض البرق فى الظلماء من إضم

(١) المصدر السابق. ص ١٩٧.

وبعـد أن يُعدِّد المؤلـف عناصر البردة فى الفصل التاسـع، يتعرض فى الفصل العاشـر لأثـر البردة فى اللغة العربيـة، ويعنق فى البداية على الشـاعر وقصيدته تعليقا طويلا نجتـزئ منه ما يلى: والبوصيرى بهذه البردة هو الأسـتاذ الأعظم لجماهير المسلمين، ولقصيدته أثر فى تعليمهم الأدب والتاريخ والأخلاق، فعن البردة تلقى الناس طوائف من الألفاظ والتعابير غنيت بها لغة التخاطب، وعن البردة عرفوا أبوابا من السيرة النبوية، وعن البردة تلقوا أبلغ درس فى كرم الشمائل والخلال، وكذلك اسـتطاع البوصيرى بتصوفه أن يؤثر فى الأدب والأخلاق تأثيرا لا يدرك كنهه إلا من رأى كيف تدير البردة على ألسِنَةِ العوام، وكيف تهذب ما انطبعوا عليه من عنجهية الخصال، وليس من القليل أن تنفذ هذه القصيدة بسحرها الأخاذ إلى محتلف الأقطار الإسلامية، وأن يكون الحرص على تلاوتها وحفظها، من وسائل التقرب إلى الله والرسول.

ثم يذكر المؤلف أنه كان للبردة أثرها أيضا فى التأليف والدروس نظرا لما وضِع لها من الشـروح الكثيرة التى كانت تعقد لها الدروس التى كانت تتلقاها الجماهير من الطلاب، لاسيما فى يومى الخميس والجمعة، خلال أوقات الفراغ. أما أثرها فى الشـعر و لشـعراء فعظيم جدا، فقد ضمَّنوها، وشطّروها، وخمسوها وسبعوها وعشروها وعارضوها.

أما الفصل الحادى عشـر فقد دار حول «بديعية ابن حجة الحموى» صاحب كتاب «خزانة الأدب»، الذى طبع بمطبعة بولاق عام ١٣٣٧هـ، وقد استهلها بقوله:

لى فى ابتدا مدحكم يا عرب ذى سلم بـراعـة تـستهـل الـدمـع فى الـعـلـم
بالله سـربى فسـربى طـلـقوا وطنى وركّـبـوا فى ضـلـوعـى مطلق السقم

وقبـل خاتمة الكتاب التى أدارها المؤلف حول «قصة المولد النبوى»، تعرض المؤلف فى الفصل الثانى عشر إلى «مدائح ابن نباتة المصرى».

رحـم الله الدكاتـرة «زكى مبـارك»، الـذى أثرى المكتبـة العربية بدراساته المسـتفيضة، وكتبه الرصينة، وأشعاره المبتكرة، وتحقيقاته التراثيـة مثل «زهـر الآداب» وغيره، ولنا معه وقفـات أخرى لاحقا، إن شاء الله تعالى.

□□□